

١٥ - أبو العباس أحمد المعتمد على الله : ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م .

بويح أبو العباس أحمد بن المتوكل - المعتمد على الله - بالخلافة سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، وظل بها حتى مات سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م . وكان طيلة فترة حكمه الطويلة بالقياس إلى حكم من سبقه من الخلفاء في العصر العباسي الثاني ، مستضعفاً على حد قول ابن طباطبا^(١) : « كان المعتمد مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع كان هو وأخوه الموفق كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء ، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته » .

وهذا الوضع فرضته الأحداث في زمن المعتمد بعدما اشتدت المنافسة بين زعماء الأتراك ، فاتفقوا على أن يتولى أمر الجيش أحد أخوة أمير المؤمنين ، وألا يرأسهم أحد منهم - الأتراك - . فاستدعى الخليفة المعتمد لذلك أخاه أبا أحمد طلحة من مكة على أنه جعل ولاية العهد لإبنة جعفر ، ومن بعده لأخيه أبي أحمد طلحة الذي دعاه «الموفق» . ومن ثم طلب إليه تدبير أمور البلاد الشرقية . واختص ابنه بتدبير البلاد الغربية^(٢) . لكن طلحة - الموفق - الذي كان أقوى شخصية وأكثر كفاءة من أخيه المعتمد وابنه جعفر ، استبد بالأمور كما ذكر ابن طباطبا .

والحق يقال ان المعتمد كان شغوفاً بالطرب واللهو والملاهي ومعاقرة الخمر ، والإستماع إلى الغناء والرقص ومجالسة الندماء^(٣) . يُروى عن المعتمد أنه احتاج يوماً إلى ثلاثمائة دينار فمنعت عنه ، فقال .

(١) الفخري في الآداب السلطانية ٢٥٠ .

(٢) السيوطي . تاريخ الخلفاء ٣٦٣ .

(٣) مروج الذهب ٤ / ١٣١ - ١٣٨ .

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمنع بعض ما يجبي إليه
وظهرت أحداث هامة في عهد المعتمد على الله، مثل ثورة الزنج، واختفاء
الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثنا عشرية^(٢) وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي
تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق^(٥).

١ - ثورة الزنج .

الزنج طائفة من العبيد الأفارقة، كلموا بالأعمال الشاقة دون أن يتقاضوا أجراً
سوى قليل من التمر والدقيق يقتاتون به . وسط هذه الأوضاع ظهر رجل يقال له :
علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي
طالب^(٦)، اشتهر بفصاحته وبلاغته، ونبله . استطاع أن يستميل قلوب العبيد من
الزنج بالبصرة ونواحيها حينما قال : بأن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد
حانت . فاجتمع إليه منهم خلق كثيرون، وناس آخرون من غيرهم، حتى عظم

(٤) طائفة الأمامية الإثنا عشرية يؤمن اتناعها بإمامة : علي بن أبي طالب - الحسن بن علي - الحسين بن
علي - محمد الباقر - جعفر بن محمد الصادق - موسى بن جعفر - علي بن موسى الرضا - محمد
الجواد - علي الهادي - الحسن العسكري - وأخيراً المهدي

(٥) انقسمت الإسماعيلية بعد سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م إلى فرقتين : فرقة تقول بإمامة المستعلي بالله ابن
الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، فعرفت بالمستعلية، وفرقة تلعن في إمامة المستعلي بالله، وتقول
بأحقية نزار - ابن المستنصر بالله أيضاً -، فسميت النزارية . أنظر ذلك في : «الحياة الإجتماعية في
مصر القاهرة» للمؤلف ٥٧ - ٥٨ .

(٦) الفخري في الأداب السلطانية ٢٥٠ والكامل في التاريخ ٥ / ٣٤٦ - ٣٥٠ .

شأنه وقويت شوكته، وصار له عز بعد فاقة، حينما غزا أصحابه المدن ينهبون ويشيعون الذعر في قلوب الأهالي فأثرى بسببها وعظم حاله ونهيه .

عيثاً حاول الخليفة المعتمد على الله صدهم، بعدما انتشروا في البلاد العراقية والبحرين وهجر، بإرسال الجيوش العباسية بقيادة كبار قاداته مثل «موسى ابن بغا»، فتحرز هذه الجيوش انتصارات جزئية، وتقتل بعض أعداد من الزنج، ولكن دون أن تنجح في القضاء على حركتهم . عند ذلك اضطر الخليفة بعدما استفحل أمرهم، وازداد خطرهم، إلى الإستعانة بأخيه الموفق الذي قاد الجيوش العباسية، وخرج لقتالهم سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م، فحاصر مدينتهم التي بنوها وأسموها «المختارة» حتى استولى عليها . واستمر الموفق في قتالهم سنين كثيرة حتى اضطرهم في آخر الأمر إلى الاستسلام بعد أربع عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ - ٨٨٣ م) قتل فيها بضعة آلاف، كما قتل صاحب الزنج نفسه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد^(٧) .

هذه الحرب الطويلة، إلى جانب الأحداث الأخرى، كلفت الخلافة العباسية أموالاً طائلة، وأفرغت بيت المال من محتوياته، في الوقت الذي أثقل فيه العمال الأهالي بالضرائب بالرغم من استبدادهم بالولايات وتلكتهم عن حمل الخراج إلى دار الخلافة . تجاه هذا الأمر لم ير الموفق - شقيق الخليفة - بدأ من الإلتجاء إلى أحمد بن طولون - والي مصر - ليمنه بالمال . ولما علم الخليفة المعتمد على الله بذلك، أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة . في الوقت نفسه أرسل كتاباً سرياً إلى ابن طولون يحذره فيه من أخيه الموفق . فسعى الأخير إلى صرفه عن ولاية مصر، ولما لم يتجاوب مع رغبته الخليفة المعتمد عمد إلى عزله عن الثغور الشامية، لكن الخليفة ردها إليه بعد أن اضطرت أحوالها . عندئذ ضيق الموفق الخناق على أخيه الخليفة واستبد بجميع الأمور دونه حتى أخرجته . فحاول المعتمد على الله الهرب إلى مصر بعدما تبادل الرسائل مع أحمد بن طولون، ولكن هذه المحاولة فشلت لوصول أخبارها

(٧) هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

إلى مسامع الموفق^(٨) الذي حال بينه وبين ذلك كما سنفصله عند حديثنا على الدولة الطولونية في الفصل الحادي عشر.

٢ - اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكري - الإمام الثاني عشر - .

توفي الإمام أبو محمد الحسن العسكري^(٩) - علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق - الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الإثني عشرية في عهد المعتمد على الله سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م . وكان ابنه محمد في الخامسة من عمره . فأصبح الإمام الثاني عشر عند تلك الطائفة .

دخل محمد بن علي الهادي سرداباً في مدينة سامراء وأمه تنظر إليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف له اتباعه على أثر منذ ذلك الحين ، أي منذ السنة التي اختفى فيها وهي سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م . وبحسب عقيدة الإمامية الإثني عشرية أن محمداً سيظهر ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، لذا سموه الأمام المنتظر وصاحب الزمام والقائم بالأمر والحجة .

٣ - تأسيس طائفة الإسماعيلية :

لجأ الأئمة الإسماعيليون إلى الإخفاء ، وعمدوا إلى نشر دعوتهم ، خوفاً من مطاردة العباسيين لهم ، ولم يمض وقت طويل حتى انقسموا إلى فرقتين كلتاهما عملت ضد الدولة العباسية .

الأولى : اتخذت من قرية «السلمية» - قرب حمص - ، مركزاً لها ، ومنها كان الأئمة يوجهون الدعوة إلى جميع الأقطار . وكانت هذه الفرقة أكثر اعتدالاً من الثانية ، ومنها انبثقت الدعوة الفاطمية .

الثانية : تنسب هذه الفرقة إلى زعيمها حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط ، لذلك عرفت هذه الفرقة بـ«القرامطة» الذين أقلقوا بال العباسيين في الكوفة والعراق وبادية الشام وغيرها .

(٨) تاريخ الطبري ٩ / ٦٢٠ - ٦٢١ . ومروج الذهب ج ٤ / ١٢٣ .

(٩) مروج الذهب ج ٤ / ١١٠ والكامل في التاريخ ج ٥ / ٣٧٣ .

هذه الأوضاع أثرت على الدولة العباسية كثيراً في الداخل والخارج، إذ إن البيزنطيين استغلوا فرصة ضعف المسلمين واضطراب أحوالهم، فتحولوا من خط الدفاع إلى الهجوم، لذلك أغاروا سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م على حصن «لؤلؤة»^(١٠). الذي كان يشكل خطراً عليهم وعلى دولتهم، واستولوا عليه، كما وجهوا غارات عديدة على أطراف بلاد الجزيرة وثغورها.

وفي خضم هذه الظروف توفي الخليفة المعتمد على الله في رجب سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ليخلفه ابن أخيه المعتضد بالله.

١٦ - المعتضد بالله: ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٤٢ - ٩٠٢ م.

تسلم أبو العباس أحمد بن الموفق الخلافة بعد وفاة المعتمد على الله. وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان^(١١) «شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم وفيه شح». لذلك كان شديد الوطأة، قليل الرحمة، حتى إذا غضب على قائد من قواده أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه.

عرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الاضطراب بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك. فكان أن عاث بنو شيبان في الجزيرة فساداً، الأمر الذي جعل الخليفة المعتضد يتولى بنفسه حملة لتأديبهم، فنهب أموالهم وقتل منهم عدداً كبيراً. وما أن انتهى من القضاء على بني شيبان في الجزيرة حتى خرج سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م للإستيلاء على قلعة ماردين التي أخذها عنوة حمدان بن حمدون - جد الأسرة الحمدانية - فكان له ما أراد وهدم القلعة المذكورة بعد أن قبض على حمدان^(١٢).

في الوقت نفسه استفحل أمر الخارجي هارون الشاري بأرض الجزيرة. وتغلب على الجيوش الخليفة التي أرسلت لحربه، عندها اختار الخليفة للقضاء عليه حسين بن حمدان - معتصب قلعة ماردين - . فقال له حسين: «إن جئت به

(١٠) تاريخ الطبري ٩ / ٥٣٢. وتاريخ ابن حلدون ح ٣ / ٣٣٧ - ٣٣٨.

(١١) الكامل في التاريخ ٦ / ١٠١.

(١٢) تاريخ ابن حلدون ٣ / ٣٤٧.

فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين، أحدهما: إطلاق سراح أبي، وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي. فوافق المعتضد على ذلك. وذهب حسين بن حمدان إلى الجزيرة وبدأ مطاردة الخارجي هارون الشاري إلى أن تمكن منه. عندئذ خلع عليه المعتضد بالله بعض الهدايا، وأمر بإطلاق سراح أبيه. فكان ذلك بداءة ظهور الأسرة الحمدانية^(١٣).

كذلك قام المعتضد برد غارات القرامطة الذين أغاروا من البحرين وسواحل فارس بزعامة أبي سعيد الحسن الجنابي على إقليم البصرة سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م بعدما حلت بالمنطقة خسائر جسيمة^(١٤).

لم تمنع الأحداث المعتضد بالله من التفكير بإصلاح الإدارة ولا سيما نظام الجباية، فهو من أجل ذلك يعمل على تغيير التقويم المتبع للتوفيق بين التقويم الهلالي والتقويم الشمسي.

فمن المعروف أن المسلمين كانوا يستعملون السنة الهلالية لأن عباداتهم - ومنها الحج والصوم - تسير وفقها.

وبما أن جباية الخراج تكون عند نزوح الغلات والثمار، التي لا يتغير وقتها ويتحدد بالسنة الشمسية.

لذلك كان لا بد من التوفيق بين السنة الخراجية والسنة الهلالية. وهذا التوفيق حصل بعدما رأى المسلمون أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوي تقريباً ٣٣ سنة هلالية. فعملوا كلما مرت ٣٢ سنة هلالية على إضافة سنة على السنة الخراجية. ففي سنة ٢٤١ الخراجية مثلاً، نسب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية واسقطت سنة ٢٤١ هـ لأن الغلة إنما حان أوانها سنة ٢٤٢ هـ.

وقد كتب المعتضد إلى عماله في العراق والمشرق يطلب إليهم تطبيق هذه الطريقة علماً أن جباية الخراج في مصر كانت تتم وفق الشهور القبطية، وفي الشام وفق الشهور الرومية، وكلاهما ثابت لا يتغير لأنهما يعتمدان نظام السنة الشمسية.

(١٣) مروج الذهب ٤ / ١٥٧.

(١٤) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٣٥٠.

ولما كان عيد النوروز من الأعياد التي اهتم العباسيون بالاحتفال بها مع الفرس، فقد أمر المعتضد أن يكون النوروز على حساب شهور الروم حتى لا يتقدم مواعده ولا يتأخر^(١٥).

إشارة أخيرة لا بد لنا من ذكرها، وهي أن المعتضد بالله انتقل من مركز خلافته في سامراء إلى بغداد، فكان ذلك بداية عهد أفول نجمها وخرابها بعدما بلغت درجة من الحسن والجمال نافست بها بغداد.

وتوفي المعتضد بالله في ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م بعد أن ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد الملقب بالمكتفي بالله.

(١٥) تاريخ الطبري ١٠ / ٣٩ . وكان المعتضد بالله قد أمر بترك افتتاح الخراج في النوروز الفارسي، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران وسمى ذلك النوروز المعتضدي .